إذن : فقارون وفرعون وهامان لما جاءهم موسى بآيات الله الواضحات استكبروا في الأرض ، وأنفوا أن يتبعوا لا بطبيعتهم وطبيعة وجود ذلك فيهم ، إنما افتعالاً بغير حق ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)﴾ [العنكبوت] فنفى عنهم أن يكونوا سابقين ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠)﴾ [الواقعة]

والسبق لا يُمدح ولا يُذم في ذاته ، لكن بنتيجته : إلى أيِّ شيء سبق ؟ كما نسمع الآن يقولون : فلان رجعي ، والرجعية لا تُذَم في ذاتها ، وربما كان الإنسان مُسْرفاً على نفسه ، ثم رجع إلى منهج ربه ، فنعْم هذه الرجعية ، فالسبق لا يُذَم لذاته ، واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣)﴾ [آل عمران] أي : سابقوا .

والمعنى هنا ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)﴾ [العنكبوت] أن هناك مضمارَ سباق ، فمن سبق قالوا : أحرز قَصَب السبق ، فإنْ كان مضمار السباق هذا في الآخرة أيسبقنا أحد ليفلتَ منْ أخْذنا له ؟ إنهم لن يسبقونا ، ولن يُفلتوا من قبضتنا ، ولن يُعجزوا قدرتنا على إدراكهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا(١) وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾

---

(١) الحصب : كل ما يُلقى في النار لتسعر به . فالحاصب : إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

الكلام هنا عن المكذِّبين والكافرين الذين سبق ذكرهم : قوم عاد ، وثمود ، ومدين ، وقوم لوط ، وقارون ، وفرعون ، وهامان ، فكان من المناسب أنْ يذكر الحق سبحانه تعليقاً يشمل كُلَّ هؤلاء لأنهم طائفة واحدة . فقال : ﴿ فَكُلاًّ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] أى : كل مَنْ سبق ذكرهم من المكذِّبين فالتنوين فى ﴿ فَكُلاًّ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] عوض عن كل من تقدَّم ذكرهم ، كالتنوين فى : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) ﴾ [الواقعة] فهو عوَض عن جملة ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) ﴾ [الواقعة]

وقوله سبحانه ﴿ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] والأخذ يناسب قوة الآخذ وقدرته ؛ لذلك يقول سبحانه عن أَخْذه للمكذِّبين ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) ﴾ [القمر] فالعزيز : الذى يغلب ولا يُغلب ، والمقتدر أى : القادر على الأَخْذ ، بحيث لا يمتنع منه أحد ؛ فهو عزيز .

والأخذ هنا بسبب الذنوب ﴿ بِذَنبِهِ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] ليس ظلماً ولا جبروتاً ولا جزافاً ، إنما جزاءً بذنوبهم وعدلاً ؛ ولذلك يأتى فى تذييل الآية :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

ثم يُفصِّل الحق سبحانه وتعالى وسائل أَخْذه لهؤلاء المكذبين : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] الحاصب : هو الحصَى الصِّغار ترمى لا لتجرح ، ولكن يُحْمى عليها لتكوى وتلسع حين يرميهم بها الريح ، ولم يقُلْ هنا : أرسلنا عليهم ناراً مثلاً ؛ لأن النار ربما إنْ أحرقته يموت وينقطع ألمه ، لكن رَمْيهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتُديم آلامهم . كما نسمعهم يقولون : سأحرقه لكن على نار باردة ؛ ذلك ليطيل أمد إيلامه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] وهو الصوت الشديد الذى تتزلزل منه الأرض ، وهم ثمود ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] أى : قارون ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] وهم قوم نوح ، وفرعون .

هذه وسائل أربعة لإهلاك المكذِّبين : النار فى الحصباء ، والهواء فى الصيحة ، والتراب فى الخسف ، ثم الماء فى الإغراق ، ورحم الله الفخر الرازى[1] حين قال فى هذه الآية أنها جمعت العناصر التى بها وجود الإنسان والعناصر الأساسية أربعة : الماء والنار والتراب والهواء . وكانوا يقولون عنها فى الماضى العناصر الأربعة ، لكن العلم فرَّق بعد ذلك بين العنصر والمادة .

فالمادة تتحلَّل إلى عناصر ، أمّا العنصر فلا يتحلل لأقل منه ، فهو عبارة عن ذرات متكررة لا يأتى منها شىء آخر ، فالهواء مادة يمكن أنْ نُحلِّله إلى أكسجين و .... إلخ وكذلك الماء مادة تتكوَّن من عدة عناصر وذرات إلى أن جاء (مندليف) ووضع جدولاً للعناصر ، وجعل لكل منها رقماً أسماها الأرقام الذرية ، فهذا العنصر مثلاً رقم واحد يعنى : يتكون من ذرة واحدة ، وهذا رقم اثنين يعنى يتكون من ذرتين .. إلخ إلى أنْ وصل إلى رقم ٩٣ ، لكن وجد فى وسط هذه الأرقام أرقاماً ناقصة اكتشفها العلماء فيما بعد .

فمثلاً ، جاءت مدام كورى ، واكتشفت عنصر الراديوم ، فوجدوا

(١) هو : محمد بن عمر ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى ، الإمام المفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، وهو قرشى النسب ، أصله من طبرستان ، ومولده فى الرىّ (٥٤٤ هـ) وإليها نسبته . ويقال له « ابن خطيب الرىّ » ، تُوفِّى فى هراة عام (٦٠٦ هـ) عن ٦٢ عاماً . من كتبه « مفاتيح الغيب » ، « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » (الأعلام للزركلى ٦/٣١٣) .

فعلاً أن رقمه من الأرقام الناقصة فى جدول (مندليف) ، فوضعوه فى موضعه ، وهذا يدل على أن الكون مخلوق بعناصر مرتبة وصلت مع التقدم العلمى الآن إلى ١٠٥ عناصر .

ولما حلَّل العلماء عناصر التربة المخصبة التى نأكل منها المزروعات وجدوها ١٦ عنصراً ، تبدأ بالأكسجين كأعلى نسبة ، وتنتهى بالمنجنيز كأقل نسبة ، لأنها لم تصل إلى الواحد من الألف . فلما حلَّلوا عناصر جسم الإنسان وجدوا نفس هذه العناصر الستة عشرة .

وكأن الحق - سبحانه وتعالى - أقام حتى الكفار ليثبتوا الدليل على صدْقه تعالى فى خَلْق الإنسان من طين ، لنعلم أن الحق سبحانه حينما يريد أنْ يُظهِر سِراً من أسرار كونه يأتى به ولو على أيدى الكفار .

وأول مَنْ قال بالعناصر الأربعة التى يتكون منها الكون فيلسوف اليونان أرسطو الذى توفى سنة ٣٨٤ قبل الميلاد ، وعلى أساس هذه العناصر الأربع كانوا يحسبون النجم ، فمثلاً عن الزواج يحسبون نجم الزوج والزوجة حسب هذه العناصر ، فوجدوا نجم الزوج هواءً ، ونجم الزوجة ناراً ، فقالوا (هيجعلوها حريقة) ، وفى مرة أخرى وجدوا الزوجة مائية والزوج ترابياً فقالوا (هيعملوها معجنة) .

ومعلوم أن الحق سبحانه لطلاقة قدرته تعالى يجعل عناصر البقاء هى نفسها عناصر الفناء ، وهو سبحانه القادر على أنْ يُنجى ويُهلك بالشىء الواحد ، كما أهلك فرعون بالماء ، وأنجى موسى - عليه السلام - بالماء .

كذلك حين نتأمل هذه العناصر الأربعة نجدها عناصر تكوين

الإنسان ، حيث خلقه الله من ماء وتراب فكان طيناً ، ثم جفَّ بالحرارة حتى صار صلصالاً كالفخار ، ثم هو بعد ذلك يتنفس الهواء ، فبنفس هذه العناصر التى كان منها الخَلْق يكون بها الهلاك .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد من خَلْقه أنْ يُقبلوا على الكون فى كل مظاهره وآياته بيقظة ليستنبطوا ما فيه من مواطن العبر والأسرار ؛ لذلك نجد أن كل الاكتشافات جاءت ، نتيجة دقَّة الملاحظة لظواهر الكون .

ويلفتنا ربنا إلى أهمية العلم التجريبى ، فيقول : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** (١٠٥) ﴾ [يوسف] فينبغى إذن أن نتأمل فيما نرى وما توصَّل الإنسان إلى عصر البخار وإلى قانون الطَّفْو عند أرشميدس ، وما توصل إلى الكهرباء والجاذبية والبنسلين إلا بالتأمل الدقيق لظواهر الأشياء . لذلك فالملاحظة هى أساس كل علم تجريبى أولاً ، ثم التجريب ثانياً ، ثم إعادة التجريب لتخرج النتيجة العلمية .

والهواء سبب أساسى فى حياة الإنسان ، وبه يحدث التوازن فى الكون ، لكن إنْ أراد الحق سبحانه جعله زوبعة أو إعصاراً مدمراً . وسبق أن قلنا : إنك تصبر على الطعام شهراً ، وعلى الماء عشرة أيام ، لكن لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير ، فالهواء إذن أهم سبب من أسباب بقاء الحياة ؛ لذلك نسمعهم يقولون فى شدة الكيد : (والله لأكتم أنفاسه) لأنها السبيل المباشر إلى الموت ؛ لذلك فالهواء عامل أساسى فى وسائل الإهلاك المذكورة .

وبالهواء تحفظ الأشياء توازنها ، فالجبال العالية والعمارات الشاهقة ما قامت بقوة المسلحات والخرسانات ، إنما بتوازن الهواء ، بدليل أنك

لو فرَّغْتَ جانباً منها من الهواء لانهارتْ فى هذا الجانب فوراً .

وبهذه النظرية يحدث الدمار بالقنابل ؛ لأنها تعتمد على نظرية تفريغ الهواء وما يسمونه مفاعل القبض ومفاعل البسط ، فما قامتْ الأشياء من حولك إلا لأن الهواء يحيط بها من كل جهاتها .

وقلنا : إن القرآن الكريم حينما يحدثنا عن الهواء يحدثنا عنه بدقة الخالق الخبير ، فكل ريح مفردة جاءت للتدمير والإهلاك ، وكل ريح بصيغة الجمع للنماء والخير والإعمار ، واقرأ إن شئت قوله تعالى :
﴿ وأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

وقوله سبحانه ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ[1] عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [الحاقة] لأنها ريح واحدة تهبُّ من جهة واحدة فتدمر .

ثم تُختم الآية بهذه الحقيقة : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] لأن الخالق ـ عز وجل ـ كرَّم الإنسان ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ .. (٧٠) ﴾ [الإسراء] كرَّمه من بين جميع المخلوقات بالعقل والاختيار ، فإذا نظرتَ فى الكون واستقرأتَ أجناس الوجود لوجدتَ الإنسان سيد هذا الكون كله .

فالأجناس فى الكون مرتبة : الإنسان ودونه مرتبة الحيوان ، ثم النبات ، ثم الجماد ، فالجماد إذا أخذ ظاهرة من ظواهر فَضْل الحق عليه من النمو يصير نباتاً ، وإذا أخذ النبات ظاهرة من ظواهر فيض الحق على الخَلْق فأعطاه مثلاً الإحساس يصير حيواناً ، فإذا تجلى عليه الحق سبحانه بفضله وأعطاه نعمة العقل يصير إنساناً .

---

(١) الريح الصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . وقال الأزهرى : شديدة البرد جداً . [لسان العرب ـ مادة : صرر] .

لكن هل النبات حين يأخذ خاصيـة النمو فَفُضِّل عن الجماد يخرج عن الجمادية ؟ لا إنما تظل فيه الجمادية بدليل أنه إذا امتنع عنه النمو يعود جماداً كالحجر ، وكذلك الحيوان أخذ ظاهرة الحسِّ وتميَّز بها عن النبات ، لكن تظل فيه النباتية حيث ينمو ويكبر .

والإنسـان وهو سـيد الـكون الذى كرَّمـه ربه بالعـقل تظل فـيـه الجمادية بدليل أثر الـجاذبية عليه ، فإذا ألقى بنفـسه من مكان عالٍ لا يسـتطيع أن يمـسك نفـسـه فى الهـواء ، وكذلك تـظل فيـه النبـاتيـة والحيـوانية . ففـيه إذن كل خصـائص الأجناس الأخرى دونه ، ويزيد عليهم بالعقل .

لذلك لا يكلِّفه الله إلا بعد أنْ ينضج عقله ويبلغ ، وبشرط أن يسلم من العطب فى عـقله كالجـنون مثـلاً ، وأن يكون مخـتاراً فـالمكره لا تكليفَ عليه ؛ لأنه غير مختار .

والإنسـان الذى كرَّمـه ربه بالعقـل والاختـيار ، وفـضَّله على كل أجناس الوجود لا يليق به أن يخضع أو يعبد إلا أعلى منه درجة ، أما أنْ يتدنى فيعبد مـا هو أقل منه رتبة ، فهذا شىء عجيب لا يليق به ، فالعـابد لا بُدَّ أنْ يكون أدنى درجةً من الـمعبـود ، وأنت بالحكم أعلى درجةً مما تحتك من الحيوان والنبـات والجماد ، فكيف تجعله يتصرف فيك ، مع أنه من تصرفاتك أنت حين تُوجده نَحْتاً ، وتقيمه فى المكان الذى تريده وإن انكسر تصلحه ؟!!

إذن : كرَّمك ربك ، وأهنْتَ نفسك ، ورضيـت لها بالدونية ، جعلك سيـداً وجعلت نفسك عـبداً لأحقـر المخلوقات ؛ لذلك يقـول تعالى فى

الحديث القدسي « يا ابن آدم ، خلقتُك من أجلي ، وخلقتُ الكون كله من أجلك ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له »[1] .

إذن : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] أي : لا ينبغي لله تعالى أنْ يظلمهم ، فساعةَ تسمع ما كان لك أنْ تفعل كذا ، فالمعنى أنك تقدر على هذا ، لكن لا يصح منك ، فالحق سبحانه ينفي الظلم عن نفسه ، لا لأنه لا يقدر عليه ، إنما لأنه لا ينبغي له أنْ يظلم ؛ لأن الظلم يعني أن تأخذ حقَّ الغير ، والله سبحانه مالك كل شيء ، فلماذا يظلم إذن .

ومثال ذلك نَفْي انبغاء قول الشعر من رسول الله ﷺ كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ .. (٦٩) ﴾ [يس] فالنبي ﷺ كان يستطيع أن يقول شعراً ، فلديه كل أدواته ، لكن لا ينبغي للرسول أن يكون شاعراً ؛ لأنهم كذابون ، وفي كل واد يهيمون ، ففَرْق بين انبغاء الشيء ووجوده فعلاً .

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت] بصيغة المبالغة ظلام ، ولم يقل ظالم ، لماذا ؟ لأن الله تعالى إنْ أباح لنفسه سبحانه الظلم ، فسيأتي على قَدْر قوته تعالى ، فلا يقال له ظالم إنما ظلاَّم - وتعالى الله عن هذا علُواً كبيراً .

ولما تكلمنا عن المبالغة وصيغها قلنا : إن المبالغة قد تكون في الحدث ذاته ، كأن تأكل في الوجبة الواحدة رغيفاً ، ويأكل غيرك خمسة مثلاً ، أو تكون في تكرار الحدث ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، وغيرك يأكل ستاً ، فنقول : فلان آكل ، وفلان أَكُول أو أكَّال ، فالمبالغة نشأتْ إما من تضخيم الحدث ذاته ، أو من تكراره .

---

(١) أخرج أحمد في مسنده (٣٥٨/٢) عن أبي هريرة رفعه : « قال الله : ابن آدم ، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنىً ، وأسُدُّ فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسدَّ فقرك » .
وقال ابن كثير في تفسيره (٢٣٨/٤) : « ورد في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فُتُّك فاتك كل شيء ، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء » .

ففى قـوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت] لم يقل للعبد ، إذن : تعدُّد الناس يقتـضى تعدُّد الظلم - إن تُصور - فجاء هنا بصيغة المبالغة (ظَلَّام) .

وهناك قضية لغوية فى مسألة المبالغة تقول : إن نَفْى المبالغة لا ينفى الأصل ، وإثبات الأصل لا يثبت المبـالغة ، فحيـن نقـول مثـلاً : فلان أكول ، فـهو آكل من باب أوْلَى ، وحين نقـول : فلان آكل ، فلا يعنى هذا أنه أكول . فنَفْى المبالغة فى ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت] لا ينفى الأصل (ظالم) ، وحاشا لله تعالى أن يكون ظالماً .

وقوله تـعالى : ﴿ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] وظلمهم لأنفسـهم جـاء من تدنّيهم وإهانتهم لأنفسـهم بالكفـر بعد أنْ كـرّمهـم الله ، وكان عليـهم أنْ يُصـعِّدوا هذا التكريم ، لا أن يُهـينوا أنفسهم بعبادة الأدنى منهم .

وبعـد أن حدثتنا الآيات عن الكـافرين الذين اتخـذوا الشركـاء مع الله ، وعن المكذّبين للرسل ومـا كان من عقـابهم ، تعطينا مثـلاً يُقرِّب لنا هذه الحقائق ، فيقول سبحانه :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ
كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ
لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

كلمة (مَـثَلُ) وردت بمشـتقاتهـا فى القرآن الكريم مـرات عدة ، ومادة الميم والثاء واللام جاءت لتعبر عن معنى يجب أنْ نعرفه ، فإذا

قيل (مِثْل) بسكون الثاء ، فمعناها التشبيه ، لكن تشبيه مفرد بمفرد .

كما فى قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى] وقوله تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى]

أما (مَثَل) بالفتح ، فتعنى تشبيه قصة أو متعدِّد بمتعدِّد ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ .. (٤٥)﴾ [الكهف]

فالحق - سبحانه وتعالى - لا يُشبِّه شيئاً بشىء إنما يُشبه صورة متكاملة بصورة أخرى : فالحياة الدنيا فى وجودها وزهرتها وزخرفها وخضرتها ومتاعها ، ثم انتهائها بعد ذلك إلى زوال مثل الماء حين ينزل من السماء فيختلط بتربة الأرض ، فينبت النبات المزهر الجميل ، والذى سرعان ما يتحول إلى حطام .

لذلك اعترض بعض المتمحكين على أسلوب القرآن فى قول الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ .. (٥٩)﴾ [آل عمران]

ووجه اعتراضه أن (مَثَل) جاءت تُشبه مفرداً بمفرد ، وهو عيسى بآدم عليهما السلام ، ونحن نقول : إنها تشبه صورة متكاملة بأخرى ونقول : هذا الاعتراض ناتج عن عدم فهم المعنى المراد من الآية ، فالحق سبحانه لا يُشبِّه عيسى بآدم كأشخاص ، إنما يُشبِّه قصة خَلْق آدم بقصة خلق عيسى ، فآدم خُلِق من غير أب ، وكذلك عيسى خُلِق من غير أب .

والمعنى : إنْ كنتم قد عجبتم من أن عيسى خُلِق بدون أب ، فكان

ينبغى عليكم أنْ تعجبُوا أكثر من خَلْق آدم ؛ لأنه جاء بلا أب وبلا أم ، وإذا كنتم اتخذتم عيسى إلهاً ؛ لأنه جاء بلا أب ، فالقياس إذنْ يقتضى أن تكون الفتنة فى آدم لا فى عيسى .

والمسألة أن الله تعالى شاء أن يعلن خلْقه عن طلاقة قدرته فى أنه لا يخلق بشكل مخصوص ، إنما يخلق كما يشاء سبحانه من أب وأم ، أو من دون أب ، ومن دون أم ، ويخلق من أب فقط ، أو من أم فقط .

إذن : هذه المسألة لا تخضع للأسباب ، إنما لإرادة المسبِّب سبحانه ، فإذا أراد قال للشىء : كُنْ فيكون . وقد يجتمع الزوجان ، ويكتب عليهما العقم ، فلا ينجبان ، وقد يصلح الله العقيم فتلد ، ويُصلح العجوز فتنجب - والأدلة على ذلك واضحة - إذن : فطلاقة القدرة فى هذه المسألة تستوعب كل الصور ، بحيث لا يحدها حَدٌّ .

والحق سبحانه حين يضرب لنا الأمثال يريد بذلك أنْ يُبيِّن لنا الشىء الغامض بشىء واضح ، والمبهم بشىء بيِّن ، والمجمل بشىء مُفصَّل ، وقد جرى القرآن فى ذلك على عادة العرب ، حيث استخدموا الأمثال فى البيان والتوضيح .

ويُحكَى أن أحدهم ، وكان صاحب سمعة طيبة وسيرة حسنة بين الناس ، فحسده آخر ، وأراد أنْ يلصق به تهمة تُشوِّه صورته ، وتذهب بمكانته بين الناس فاتهمه بالتردد على أرملة حسناء ، وقد رآه الناس فعلاً يذهب إلى بيتها ، فتخرج له امرأة فيعطيها شيئاً معه .

ولما تحقق الناس من المسألة وجدوها عجوزاً لها أولاد صغار وهم فقراء ، وهذا الرجل يعطف عليهم ويفيض عليهم مما رزقه الله ، فلما عرفوا ذلك عن الرجل عظَّموه ، ورفعوا من شأنه ، وزاد فى نظرهم مجداً وفضلاً .

وقد أخذ الشاعر هذا المعنى وعبَّر عنه قائلاً مستخدماً المثل :

وإذَا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيلةٍ طُويَتْ أتَــاحَ لَهـا لِسَـانَ حَسُـود

لَوْلاَ اشْتِعالُ النارِ فيما جَـاورَتْ مَا كان يعرف طِيبُ عَرْفِ العُودِ

والعود نوع من البخور ، طيب الرائحة ، لا تنتشر رائحته إلا حين يُحرَق .

ومن مشتـقاتها أيضاً (مَثُلَة) كمـا فى قوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ .. ⦗٦⦘﴾ [الرعد] وهى العقـوبات التى حاقتْ بالأمم المكذِّبة ، حتى جعلتها عبرةً لغيرها .

فإذا اشتـهر المثَل انتشـر على الألسنة ، وضربه الناس مثـلاً كما اشتهر حاتم الطائى بالكرم والجود حتى صار مضرب المثل فيه ، وقد تشتـهر بيننا عبارة مـوجزة ، فتصـير مثلاً يضـرب فى مناسبها كما نقول للتلميـذ الذى يهمل طوال العام ، ثم يجتهد ليلة الامـتحان (قبل الرماء تملأ الكـنائن) مع الاحتفاظ بنص المثل فـى كل مناسبة ، وإن لم يكُنْ هناك رمى ولا كنائن .

كما أن المـثَل يقال كما هو دون تغـيير ، سواء أكـان للمفرد ، أم المثنى ، أم الجـمع المذكر ، أو للمؤنث . كذلـك نقول (ماذا وراءكِ يا عصامِ) بالكسر ؛ لأنها قيلت فى أصل المثَل لامرأة .

يقول الحق سبحانه : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا .. ⦗٤١⦘﴾ [العنكبوت]

فهـذا مثل فى قمـة العقـيدة ، ضربه الله لنا للتـوضيح وللبـيان ، ولتقريب المـسائل إلى عقولنا ، وإياك أن تقـول للمثل الذى ضربه الله

لك : ماذا أراد الله بهذا ؟ لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة]

فالبعض يرى أن البعوضة هذه شيء تافه ، فكيف يجعله الله مثلاً ؟ والتحقيق أن البعوضة خَلْق من خَلْق الله ، فيها من العجائب والأسرار ما يدعوك للتأمل والنظر ، وليست شيئاً تافهاً كما تظن ، بل يكفيك فَخْراً أنْ تصل إلى سرِّ العظمة فيها .

ففى هذا المخلوق الضئيل كل مُقوِّمات الحياة والإدراك ، فهل تعرف فيها موضع العقل وموضع جهازها الدموى .. إلخ وفضلاً عن الذباب والناموس وصغار المخلوقات ألا ترى الميكروبات التى لا تراها بعينك المجردة ومع ذلك يصيبك وأنت القوى بما يؤرقك وينغص عليك .

إذن : لا تقُلْ لماذا يضرب الله الأمثال بهذه الأشياء لأن الله ﴿ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] ما فوقها أى : فى الصِّغَر والاستدلال . أى : ما دونها صغراً ؛ لأن عظمة الخلق كما تكون بالشىء الأكثر ضخامة تكون كذلك بالشىء الأقلّ حجماً الأكثر دقَّة .

لو نظرتَ مثلاً إلى ساعة (بج بن) وهى أضخم وأشهر ساعة فى العالم ، وعليها يضبط العالم الوقت لوجدتَها شيئاً ضخماً من حيث الحجم ليراها القادم من بعيد ، ويستطيع قراءتها ، فدلَّتْ على عظمة الصَّنْعة ومهارة المهندسين الذين قاموا ببنائها ، فعظمتها فى ضخامتها وفخامتها ، فإذا نظرتَ إلى نفس الساعة التى جعلوها فى فصِّ الخاتم لوجدتَ فيها أيضاً عظمة ومهارة جاءت من دقَّة الصنعة فى صِغَر الحجم .

كذلك الراديو أول ما ظهر كان فى حجم (النورج) ، والآن أصبح صغيراً فى حجم الجيب .

ومن مخلوقات الله ما دق ؛ لدرجة أنك لا تستطيع إدراكه بحواسك ، والعجيب أن يطلب الإنسان أنْ يرى الله جهرة ، وهو لا يستطيع أنْ يرى آثار خَلْقه وصَنْعته . فأنت لا ترى الجن ، ولا ترى الميكروب والجراثيم ، ولا ترى حتى روحك التى بين جنبيك والتى بها حياتُك ، لا يرى هذه الأشياء ولا يدركها بوسائل الإدراك الأخرى ، فمن عظمته تعالى أنه يدرك الأبصار ، ولا تدركه الأبصار .

نعود إلى المثل الذى ضربه الله لنا : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : شركاء وشفعاء ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت] هذا المخلوق الضعيف الذى ينسج خيوطه بهذه الدقة التى نراها ، والذى نسج خيوطه على الغار فى هجرة رسول الله ﷺ ، واشترك مع الحمامة فى التعمية على الكفار .

﴿ اتَّخَذَتْ بَيْتًا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : من هذه الخيوط الواهية ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت] فخطأ العنكبوت ليس فى اتخاذ البيت ، إنما فى اتخاذ هذه الخيوط الواهية بيتاً له وهبّة ريح كافية للإطاحة بها ، ويشترط فى البيت أن يكون حصيناً يحمى صاحبه ، وأن تكون له أبواب ونوافذ وحوائط .. إلخ . أما لو اتخذها شبكة لصيد فرائسه لكان أنسب ، وكذلك الكفار اتخذوا من الأصنام آلهة ، ولو اتخذوها دلالة على قدرة الحق فى الخَلْق لكان أنسب وأَجْدى .

وكما أن بيت العنكبوت تهدمه هَبَّة ريح وتُقطعه وأنت مثلاً تنظف بيتك ، وربما تقتل العنكبوت نفسه ، فكذلك طبْق الأصل يفعل الله بأعمال الكافرين : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان]

وكذلك يضرب لهم مـثلاً آخر : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .. ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم]

ومعنى : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت] أى : حقيقة الأشياء ، فشـبكة العنكبـوت لا تصلح بيتـاً ، ولكن تصلح مصـيدةً للحـشرات ، وكذلك الأصنام والأحجار لا تنفع لأنْ تكون آلهة تُعبد ، إنما لأنْ تكون دلالة على قـدرة الخـالق ـ عـز وجل ـ فلو فكَّروا فـيهـا وفى أسـرار خَلْقها لاهتدوا من خلالها للإيمان .

فهى ـ إذن ـ دليلُ قـدرة لو كانوا يعلمـون ، فالجبل هذا الصـخر الذى تنحتون منـه أصنامكم هو أول خادم لكم ، ولمن هو أدْنى منكم من الحـيوان والنـبات ، وسـبق أن قلنا : إن الجـماد يـخدم النبـات ، ويخدم الحيوان ، وهم جميعاً فى خدمة الإنسان .

إذن : فالجماد خادم الخدامـين ، ومع ذلك جعلتموه إلهاً ، فانظروا إذن إلى هذه النقلة ، وإلى خسَّة فكركم ، وسـوء طباعكم حيث جعلتم أدنى الأشياء وأحقرها أعلى الأشياء وأشرفها ـ أى : فى زعمكم .

فكيف وقد مـيَّزك الله على كل الأجناس ؟ لقد كـان ينبغى منك أن تبحث عن شىء أعلى منك يناسب عبادتك له ، وساعتها لن تجد إلا الله تتخذه إلهاً .

بل واقرأ إنْ شـئْتَ عن الجماد قـوله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [فصلت] أى : فى الأرض ﴿وَرَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت]

فكأن الجبـال الصَّماء الراسيـة هى مخازن القـوت للناس على مَرٍّ

الزمان ، فمنها تتفتت الصخور ، ويتكوَّن الطمى الذى يحمله إلينا الماء فى أيام الفيضانات ، ومنها تتكون الطبقة المخصبة فى السهول والوديان ، فتكون مصدر خِصْب ونماء دائم ومتجدد لا ينقطع . وتذكرون أيام الفيضان وما كان يحمله نيل مصر إلينا من خير متجدد كل عام ، وكيف أن الماء كان يأتينا أشبه ما يكون بالطحينة من كثرة ما به من الطمى .

فياليت عُبَّاد الأصنام الذين نحتوا الصخور أصناماً تأملوا هذه الآيات الدالة على قدرة الخالق سبحانه بدل أن يعبدوها من دون الله .

وفى موضع آخر يضرب لنا الحق سبحانه مثلاً فى قمة العقيدة أيضاً ، فيقول سبحانه :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

ففَرْق بين عبد مملوك لسيد واحد يتلقَّى منه وحده الأمر والنهى ، وبين عبد مملوك لعدة شركاء ، وليتهم متفقون ، لكن ﴿شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩)﴾ [الزمر] مختلفون لكلٍّ أوامر ، ولكلٍّ منهم مطالب ، فكيف إذن يُرضيهم ؟ وكيف يقوم بحقوقهم وهم يتجاذبونه ؟

فالذى يعبد الله وحده لا شريك له كالعبد لسيد واحد ، والذين يعبدون الأصنام كالعبد فيه شركاء متشاكسون . إذن : فالحق سبحانه يضرب الأمثال للناس فى الحقائق ليُبيِّنها لهم بياناً واضحاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤٢﴾